الموسيقى في وجهٍ آخر

على قدر ما بات من المألوف هذه الأيام أن تحوز الآنسات والسيدات من الموسيقيات على بعض أضواء الشهرة، إلا أن كلاً من تاريخ البشر القريب والبعيد، لم يمنح المرأة يوماً حقها الإنساني بالمساواة مع الرجل في حقل الفنون، والموسيقى خاصة

لمعت إليزابيت جاك دولاغير كأول النسوة اللاتي احترفن العزف والتأليف الموسيقيين (Getty)

نساء دخلن التاريخ بصمت

علي موره لي

أشبه برنين يجوب رحاب معبد للزن، تتناهى أولى المتطابقات من الأصوات لمقطوعة المؤلفة الموسيقية الفنلندية كايا سارياهو Kaija Saariaho والمعنونة «أقواس ضياء» (Lichtnbogen)، من إصدار سنة 1985، تستلهم من خلالها ظاهرة الشفق القطبي، وتستمزج في تراكيبها الآلات الأوركسترالية بأصوات إلكترونية تولّدها الحواسيب؛ أسلوبٌ حداثي مؤثر ستبرز كواحدة من رواده الطليعيين.

كانت لتلك المقطوعة الخارقة للعادة في زمانها أصداء إيجابية ومُرحّبة بالسيدة سارياهو، علماً بارزاً وصوتاً مؤثراً في المشهد الموسيقي العالمي؛ استكمالاً للصورة الحسنة التي رسمتها كوكبة المؤلفين الفنلنديين من خريجي أكاديمية «سيبيليوس» الموسيقية، تيمّناً بأيقونة الموسيقى الفنلندية يان سيبيليوس 1865-1957 Jan Sibelius، شملت عدداً من الأسماء الأخرى اللامعة، كالمؤلف وقائد الأوركسترا الشهير Esa-Pekka Salonen، ومن قبل ذلك معلّمه الراحل إينوجوهاني راوتافارا 1928-2016 Einojuhani Rautavaara. على قدر ما بات من المألوف هذه الأيام أن تحوز الآنسات والسيدات من الموسيقيات، عازفات وقائدات أوركسترا، على بعض أضواء الشهرة والصدارة، وأن تُمنحن مؤلفات، كـ سارياهو، الجوائز العالمية والأجور السخيّة، بغية تمكينهن من إنجاز عديد الأعمال كي تؤديها كُبريات الفرق العالمية، إلا أن كلا من تاريخ البشر القريب والبعيد، لم يمنح المرأة يوماً حقها الإنساني بالمساواة مع الرجل في حقل الفنون، ناهيك عن بقية الحقول، والموسيقى خاصة، والتأليف الموسيقي بشكل أخص.

ذكورة التاريخ تعمّقت لدرجة أنّ أحداً لا يتذكر امرأةً كموسيقية

ذكورة التاريخ أمست على درجة من التعمق والتجذر داخل الوعي الإنساني، بات يتعذر معها أن ينتبه المرء، ولو مرة، إلى واقع أن من بين كل أساطين الموسيقى العالمية على مر العصور، من باخ وموتزارت وبيتهوفن وصولاً إلى تشايكوفسكي وبرامز، لا ذِكر أو اعتبار ولا لامرأة واحدة. قد لزم البشرية عشرون قرناً ونيف، قبل أن تبدأ دوائر السياسة والصحافة ومؤسسات الثقافة بالبحث عن أعمال موسيقية نسائية تحت ضغط مضطرد من الحراك النسوي الراهن، وإن بدوافع انتهازية، مسارِعةً إلى ركوب الموجة الجارية.

في مقالة ذات صلة نشرت في صحيفة الغارديان سنة 2012، تتساءل المؤلفة والكاتبة البريطانية كيري آندرو Kerry Andrew عن سرّ غياب التمثيل النسوي ضمن المشهد الموسيقي العالمي، أسوة على الأقل، مثلاً، بالأدبيات مطلع القرن التاسع عشر وحتى اليوم. مشيرة إلى أنه في معهد ترينيتي Trinity الشهير للعناية بالمواهب الموسيقية الصاعدة، حيث تُدرّس آندرو، وعلى الرغم من كون الغالبية من مجمل المنتسبين هم من الإناث، يبقين مع ذلك دون ثلث الملتحقين بصف التأليف الموسيقي.

إبداع أعمال موسيقية خالدة تبقى وتقطع الحقب والعصور، يتطلب نفحات من عبقرية، وتلك سمة نادرة أصلاً بين عموم الناس من ذكور وإناث، فما بالك، إذن، حين يتأسس بنيان اجتماعي عمره قرون، يقوم على تسيّد الرجال في كافة مجالات الحياة، فلا يعود بالإمكان أصلاً معرفة مدى النبوغ الموسيقي لدى النساء، ما دُمن لا يحظين بالفرص ذاتها في الظهور والعبور من بين هرميات المؤسسات الاجتماعية المختلفة، بداية بالبيت ثم المدرسة، مروراً بالكلية ثم المسابقة الدولية، انتهاءً بدور النشر وشركات الإنتاج وطبع الأسطوانات وتنظيم الحفلات، وصولاً إلى آذان الجمهور من مستمعين ونقاد.

سيدتان فرنسيتان تحدتا السائد في أحقاب زمنية ماضية، أضاءتا التاريخ بأعمال موسيقية راقية، لم يُعِنهما الاقتران أو الاستنساب بأسماء رجولية لامعة (كحال كل من الألمانيتين كلارا شومان Clara Schumann 1819-1896 اقتراناً بزوجها المؤلف روبرت شومان، وفاني مندلسون Fanny Mendelssohn 1805-1847 نسبة إلى زوجها المؤلف فيليكس مندلسون)، وإنما رسمت كل منهما على حدة علامة موسيقية فارقة، نتجت عن طاقة خلاقة عارمة، تبلورت بصلابة عزيمة فائقة. في زمان أقصى النسوة عن مجال التعليم الموسيقي، ثم عن مجال النشر، في حال عكفن على التأليف، ثم عن مجال الاستمرار في تقديم العروض الفنية ونيل الردود الصحافية والنقدية، لمعت إليزابيت جاك دولاغير Elisabeth Jacquet de la Guerre1665-1729 كأول النسوة اللاتي احترفن العزف والتأليف الموسيقيين بخالص المعنى الحديث للكلمة.

من بين أبناء أربعة لأسرة موسيقية فرنسية عريقة، نبغت إليزابيث في سن مبكرة. أحيت أول حفل لها في القصر الملكي وهي في الثانية عشرة من عمرها. بتوجيه وتشجيع من والدها قل نظيره في عصرها سوى ما ندر، وحتى حين ألزمت العادة أن تعتزل المرأة العزف والكتابة الموسيقية عقب الزواج، أبت دولاغير الرضوخ للعرف السائد، وتابعت قُدماً نشاطها الأدائي والتأليفي، فأنجزت أول مسرحية غنائية سنة 1685.

لفتت مواهبها الفذة انتباه الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، فأحاطها برعايته منذ البداية. بيد أن لقربها من الملك وحاشيته أثرٌ فاق العناية والرعاية، فقد مُنحِت دولاغير عن طريق البلاط عبوراً إلى دور نشر ذائعة الصيت في فرنسا، كـ لو روي وبويّلار. افتتان الملك بمؤلفات الموسيقية الشابة وشهادته في إحدى المقطوعات التي كتبتها بعنوان «ريفية موسيقية» Pastorale en Music بأن «لها من الجرأة الفنية ما ليس لأيّ من بنات جنسها»، بحسب ما ورد عنه.

الانطلاقة ذاتها من البلاط الفرنسي، مكّنت دولاغير، في ما بعد، من تجاوزه والخروج عنه؛ ما جعل منها، وحتى قبل موتزارت بقرابة المئة عام، من أوائل الموسيقيين المستقلين، الثوريين القافزين عن أحضان الرعاية الأرستقراطية. مبتدئة بذلك سيرة احترافية ظلت حكراً على القليل من الرجال، تكتب الأعمال ثم تنشرها في دور النشر المرموقة، تحيي الحفلات الخاصة والعامة، فتنال الأجر والثناء، وتحظى باهتمام الجمهور والنقاد. في وصف أعمال المؤلفة الفرنسية ليلي بولانجيه Lili Boulanger 1893-1918، كتب إيغور ماركيفيتش، أحد أبرز قادة الأوركسترا في منتصف القرن العشرين: «لطالما أثارت فرادة مقطوعاتها بي الإعجاب، فهي لا تُعير اهتماماً لما هو رائج، وتبدو في غفلة عن أصداء ما يُقال ويُكتب. في ذلك، أعتقد، يكمن سر بقائها».

ناديا وليلي

في فرنسا مشارف القرن العشرين، وفي ظل روح عصر لا تزال تحمل بصمة «الاعراف النابوليونية» منذ عام 1804، ضُيّق الخناق على النساء في مختلف صعد الحياة. إلا ان ذلك لم يمنع الاختين ناديا وليلي، اللتين نشأتا في أسرة فنية لأب فرنسي وأم روسية، من التطلع نحو تحقيق سيرة مهنية في التأليف الموسيقي. ناديا ستغدو قريباً إحدى أساتذة التأليف الأشهر في اوروبا بين الحربين.

«مملكة» بوش
صخب الغيتارات وعنف الدرامز

عمر بقبوق

نهاية الأسبوع الماضي، أصدرت فرقة الروك البريطانية، Bush، ألبوماً جديداً حمل عنوان «The Kingdom». وهو الألبوم الثامن في مسيرة الفرقة التي تم تأسيسها في بداية التسعينيات، وشهدت في مسيرتها الكثير من التقلبات؛ فبعد أن حظيت بنجاح تجاري سريع مع إصدارها أول ألبوم رسمي (Sixteen Stone 1994)، لم تتمكن «Bush» يوماً من المحافظة على ذات النسق؛ إذ كان مستوى ألبوماتها متفاوتاً في التسعينيات، وتوقف نشاطها بشكل كلي في بداية الألفية الجديدة، قبل أن تستأنف نشاطها الفني عام 2011، لتواظب منذ ذلك الحين على طرح ألبوم كل ثلاثة أعوام.

وفي حقبتها الجديدة، تواصلت أزمتها الأولى رغم تبدل غالبية أعضائها، فمستواها المتفاوت والتراوح بين النجاح والفشل، بقي عنواناً للفرقة؛ لكن الفارق أن «Bush» لم تتمكن بعد عودتها من ترك علامة فارقة في الموسيقى كالتي أحدثتها في حقبتها الأولى. وفي ألبومها الجديد، «The Kingdom»، تحاول «Bush» أن تلتقط لحظة من الماضي، فتعود لبداياتها لتستلهم ذات النسق الموسيقي الذي كان له الفضل بنجاحها، وتستحضر ذات الروح، فيعلو صوت الغيتارات الكهربائية مع الضربات الإيقاعية السريعة على الدرامز، لتعزف موسيقى الـ«أنترنيتف روك» والـ«غارانج» التي تميزت بها، بأسلوب لا يختلف قيد أنملة عن أسلوب «Bush» سنة 1994؛ وكأن الفرقة تراهن على أن مفتاح النجاح عالق بتلك الحقبة البعيدة.

وفعلاً، تنجح «Bush» في خلق فضاء موسيقي مشابه، بفضل أداء مغني الفرقة الرئيسي ونجمها الأكبر، غيفن روسدايل؛ الذي يتمكن من مجاراة الموسيقى العنيفة ذات الإيقاع السريع بمرونة فائقة. لكن هذا الارتداد البعيد، الذي لا يخلو من فكر نوستالجي، ترك انطباعات وردود أفعال متباينة، يمكن التماسها في المراجعات النقدية بالمجلات الموسيقية العالمية؛ إذ حصلت الفرقة من خلال الألبوم على أعلى درجة لها في حقبتها الثانية ببعض المجلات، مثل «إنترتيمنت فوكس» التي منحت الألبوم أربع درجات من أصل خمس، في حين نال الألبوم أسوأ تقييم بين جميع ألبومات «Bush» في مجلة «رولينغ ستونز»، التي منحت الفرقة تقييم نجمة ونصف من أصل خمس فقط.

هناك اختلاف نقدي حول الدور الذي يجب أن تؤديه فرق الروك

سبب هذا التباين الكبير بالمراجعات النقدية، هو الاختلاف حول الدور الذي يجب أن تؤديه فرق الروك في الوقت الحالي، والاختلاف حول الشكل الذي يجب أن تظهر عليه؛ فألبوم «The Kingdom» عمل مثالي لعشاق مدارس الروك القديمة، ويفضلون الاستمتاع بصخب الغيتارات الكهربائية وضربات الدرامز العنيفة، من دون أن تخضع لأي تعديلات أو إضافات بالموسيقى الإلكترونية والأنماط الدارجة. ولكن بالطبع، فإن ما يعيب الألبوم هو انعدام محاولات التجديد فيه، باستثناء أداء روسدايل، الذي يبدو متجدداً ومتطوراً، وكأنه العنصر الوحيد في الألبوم الذي تخطى حدود حقبة التسعينيات.

وبالنسبة لكلمات الأغاني، فهي تبدو مفككة، وكأنها جمل شعرية بسيطة تم ترتيبها على عجل ضمن منظومة غريبة، لا تقدم معاني متكاملة، لكنها توحي بحالات نفسية معقدة؛ فهي مزيج من الانكسار والأمل، ومزيج من الخوف واللامبالاة. هذا الضياع تترجمه «Bush» بأغانيها من خلال صياغة الجمل فيها، فهي تعتمد بمعظم الأغاني على طرح الأسئلة من دون أن تحاول العثور على أجوبة.

تعتمد الفرقة على طرح الأسئلة من دون ان تحاول العثور على اجوبة (Getty)

أخبار

أصدر ثلاثي الروك الأسترالي، **DMA's**، ألبوماً جديداً حمل عنوان «The Glow»؛ وهو العمل الثالث في مسيرة الفرقة التي تشكلت في مدينة سيدني قبل ثمانية أعوام. يضم الألبوم إحدى عشرة أغنية.

عند التاسعة من مساء 30 من الشهر الجاري، تبث **دار الأوبرا المصرية**، عبر قناة وزارة الثقافة على يوتيوب، حفلاً بعنوان «سهرة مع أغاني منير مراد»، إذ تؤدّي فيه الفرقة أعمالاً للفنان الراحل.

بعد انقطاع دام لأكثر من ثلاثة أشهر عن الحفلات الحية، يعود «**مترو المدينة**» في بيروت، تدريجياً، إلى العروض الحية. عند العاشرة من مساء 31 من الشهر الجاري، يكون الجمهور على موعد مع «أغاني سرفيسات».

أخيراً، أصدر المغني الأميركي **ويلي نيلسون** ألبوماً جديداً حمل عنوان «First rose of spring»؛ وهو الألبوم السبعون في مسيرة أسطورة موسيقى الكاونتري، الذي يبلغ من العمر 87 سنة.

فاجأت المغنية الأميركية **تايلور سويفت** جمهورها بإعلانها عن إصدار أسطوانة جديدة عنوانها «فولكلور» Folklore، هي الثامنة لها تسجلها في استديو. تتضمن الأسطوانة 16 أغنية، فيما تشمل النسخة «المميزة» أغنية إضافية عنوانها «ذا ليكس».